المنفى وهاجس العودة في المجموعة الشعرية

"دمي على كفي " لسميح القاسم

طالب الماجستير رحيم زاير كاظم الغانمي

في قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الالهيات والمعارف الإسلامية

جامعة شهيد تشمران اهواز, اهواز ،ايران

البريد الإلكتروني:

raheemga93@gmail.com

رقم الموبايل: (07705531248)

الدكتورة: خيرية عجرش (الكاتب المسؤول)

استاذ مشارک في قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الالهيات والمعارف الإسلامية

جامعة شهيد تشمران اهواز, اهواز ،ايران

البريد الإلكتروني: Echresh.kh@gmail.com

Majestr student: Raheem Zayer Kazem Al-Ghanimi

Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Theology and Islamic Knowledge, Shahid Chamran University of Ahvaz, ahvaz,Iran

raheemga93@gmail.com

Dr: Khairiya Echresh (Responsible Writer)

Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Theology and Islamic Knowledge, Shahid Chamran University of ahvaz, Ahvaz, Iran

Echresh.kh@gmail.com

ملخص البحث:

لقد تبنت الدراسة الخوض في ثيمتي المنفى وهاجس العودة في شعر سميح القاسم لأنهما يمثلان هم شريحة واسعة من المنفيين في اصقاع العالم, ولما ينالون ما يناله فلسطيني الداخل من تهميش واهمال على الرغم ممَّا يتمتعون به من هامش حرية يتمثل في بعدهم عن قوى الاحتلال وماكنته القمعية على مستوى القتل أو تكميم الأفواه, مختطين لهم مساراً نضالياً يليق بالقضية الفلسطينية العادلة, في اعلاء كلمة المقاومة والنضال متخذين من الأدب والاعلام منبراً لنقل همومهم وتطلعاتهم, ذلك الفعل النضالي الذي حفَّز الشعراء للخوض في شعر المقاومة, تحت مسمى (شعر المنفى, وشعر العودة), واعتماد موضوعاته المتنوعة التي صار لها أثرها الفاعل في الحراك النضالي المقاوم لقوى الخارج, وقد تمثلت في موضوعات المنفى مثل سلطة (الانتماء, والمكان, الانتظار, والحنين), قابلته موضوعات في شعر العودة لا تقل عنها شأناً, ويمكننا اجمالها, ب(رفض المساومة, روح الفداء, إشاعة الأمل, وثقافة العودة), في تأكيد لحضور شعري المنفى والعودة وما يمنحانه لشعر المقاومة من زخم يصب في نصرة قضية الشعب الفلسطيني وحقَّه في الأرض والعودة, سعياً من شعراء هذا اللون الفلسطيني الخالص لفتح ملف فلسطينيّ الخارج ومساواتهم وفلسطينيّ الداخل في الروح الوطنية والمصير المشترك على أقل تقدير.

الكلمات المفتاحية : (المنفى, العودة, شعر, دمي على كفي, سميح القاسم) .

Exile and the obsession of return in the poetry collection

"My blood is on my palm" by Samih Al-Qasim

Abstract:

The study adopted the two themes of exile and the obsession of return in Samih al-Qasim's poetry because they both represent a large segment of the exiles in all parts of the world, and when they suffer the marginalization and neglect of the internally Palestinian, despite what they enjoy from a margin of freedom represented in their distance from the occupation forces and its repressive machinery on the the level of murder or silencing of mouths, plotting for themselves a path of struggle befitting the just Palestinian issue, in raising the word of

resistance and struggle, using literature and the media as a platform to convey their concerns and aspirations, that struggle act that motivated poets to delve into the poetry of resistance under what is called poetry of exile and poetry of return

Its various themes, which have had an effective impact on the struggle movement resisting the forces of the outside, were represented in the themes of exile, such as the authority of (belonging, place, waiting.nostaligia). In the other hand , there were other topics about the poetry of return no less important than the poetry of exile ,which are(refusal of redemption ,spreading hope and the culture of return to the homeland) in confirmation of both the poetry of exile and poetry of return, and , the impetus they give to the poetry of the resistance that is in support of the issue of the Palestinian people and their right in the land and return,in pursuit of the poets of this particular Palestinian color to open the file of Palestinians abroad and their equality to Palestinians inside in the national spirit and a common destiny, at the very least.

Keywords exile, return, poetry, my blood is on my hand, Samih al-Qasim

المقدمة

يحظى موضوعا المنفى وهاجس العودة اهتماماً كبيراً من قبل الدراسين في حقل شعر المقاومة الفلسطينية, لما يمثلانه من فعل انساني يستهدف تناول قضية المصير المشترك لدى الشعوب العربية والاسلامية, وهذا الفعل يستنهض بحساسية مفرطة وجدان الفلسطينيّ المنفي قسراً أو طوعاً, والبوح بما يعتلي صدره من تحديات المنفى ولواعج النفس الإنسانية وحنينها للعودة إلى الديار الأمر الذي يتقاطع ورغبة المحتل في الابقاء عليه في أرض الشتات, لتخفيف الزخم الفلسطيني وافراغ الارض المحتلة من ساكنيها الاصليين وابدالهم بمرتزقة, سعياً منه على طمس الهوية الفلسطينية والرموز العربية والاسلامية والتاريخية الشاخصة في أرض فلسطين, ولقد جرى تناول هاتين الثيمتين في مبحثين, الأول تنظيري: يبتدأ بتعريف القارئ بالشاعر سميح القاسم, وبمفهوم أدب المقاومة الفلسطينية, شعراء الداخل (شعراء المقاومة), وشعراء الخارج (شعراء المنفى, شعراء العودة), أما المبحث الثاني: يشرع للبحث في موضوعات شعر المنفى والعودة, وما تنضوي تحته من موضوعات سلطة (الانتماء, والمكان, الانتظار, والحنين), تقابله موضوعات في شعر العودة تمثلت في (رفض المساومة, روح الفداء, إشاعة الأمل, وثقافة العودة), التي تكشَّفت بعد سبر غور العينات النصية التي تم تناولها معتمدين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي الذي تمكنا من خلاله الوصول إلى النتائج المتوخاة من الدراسة.

أهمية البحث

تأتي أهمية البحث لتمركز ثيمتي المنفى وهاجس العودة في أغلب نصوص المجموعة الشعرية (دمي على كفي), الأمر الذي لفت إليه انتباه الدارس, بما قد تضيفانه هاتان الثيمتان من قيمة فنية ودلالية تشترك في تشييد معمار النص الشعري لسميح القاسم, وكذلك في تنامي الفعل الشعري, الذي كُرِّس من أجل ديمومة المطالب الفلسطينية الشعبية الحقَّة, تحت ظلال خطاب مقاوم واحد, وهو ما يحرص عليه شعراء المقاومة على مستوى النتاج الإبداعي.

سبب اختيار البحث

من الاسباب الموضوعية التي أدت إلى اختيار البحث لصدق مطالب المنفيين من الفلسطينيين, لا تقل شأناً عن مطالب مقاومة الداخل, وهذا ما تمَّ لمسه في ثيمتي (المنفى و العودة), التي شكلت هاجساً للفلسطيني المنفي في حِلِّهم وارتحالهم, ثنائية مقاومة الخارج التي لا مناص الاعتراف بدورها الفاعل, ولا تتوقف فاعليتها في الوجود النضالي إلَّا بتحقيق العودة إلى الديار الفلسطينية المحتلة, سواء بالتحرير الكامل لكلِّ شبر من أرض فلسطين المحتلة أو العودة مع وجود المحتل بكسر إرادة التجبر والغطرسة, وهو ما حرصت عليه النتاج الإبداعي في تجسيد مشاعر الثورة لدى اللاجئ الفلسطيني في أصقاع العالم, والذي لم تثنه المصاعب أو تلهية مباهج الحياة, على الرغم من ابتعاده عن تجبر قبضة المحتل وتحكمه, فقد بقي رافعاً صوت التحرير صادحاً بالحقِّ الفلسطيني السليب, النفي في تصور الفلسطينيِّ نفي للجسد لا أكثر, الروح معلقة بحبائل الأرض المقدسة, وما النفي أو النزوح إلَّا لراهن زمني محدود يسقط أمام هاجس العودة الذي يقضُّ مضاجع المحتل ويوهن إرادته الواهية, رسالة للأجيال القادمة بصدق الانتماء وعدالة القضية الفلسطينية.

أهداف البحث

يهدف البحث الوقوف على التأثير الفادح الذي تركه النفي على الجسد الفلسطيني, والتأكيد على حق العودة, مما يعني التمجيد بالقضية الفلسطينية على اعتبار أنَّها القضية العادلة للشعب الفلسطيني ولشرفاء الأمة العربية والإسلامية من قوى وتشكيلات خيرة تؤمن بقايا الأمم المظلومة, والتعريف بالشاعر سميح القاسم على مستوى الفعل الأدبي المتفرد والثوري الناهض بالكلمة الحرَّة, من خلال فحص نصوص المجموعة الشعرية (دمي على كفي), بالقراءة والفهم والتقصي لموارد المعنى المقاوم والنهج الإنساني القويم, متخذين من ثنائية (المنفى, والعودة), وما يتأسس عنهما من معنى جديد لفعل مقاومة الخارج وما يترتب عليه من قضّ مضاجع المحتل من الداخل, سعياً منها لخلخلة دعائم فكره التوسعي الواهن, وهو ما يهدف إليه الخطاب الشعري المقاوم من رسم خارطة توازن القوى الفلسطينية الداخلية والخارجية, وترسيخ معالم دورهما الثوري معاً, مما شجع الباحث في الركون إلى ثيمتي (المنفى, وهاجس العودة), وجعلهما سبيلاً للخوض في مجريات الدراسة بشقيها النظري والتحليلي.

التعريف بالشاعر

من مواليد فلسطين ولد في العام 1939م, نشأ وتربى وتلقى تعليمه في مدينتي الرامة والناصرة, وبعد إكماله الدراسة مارس مهنة التدريس في إحدى المدارس في فلسطين، ثمَّ ما لبث مدة طويلة حتى بانت للعلن توجهه الساسي, مما حدى به العمل كناشط في الحزب الشيوعي، ومن بعد ما تبلورت التجربة المهنية والسياسية تفرّغ للأدب والشعر، بصيغة رسالة تتخذ من المقاومة والثورة عنوانها العريض التي يستوعب التوجهات كافة, حتى صار لسميح القاسم أسلوبه الشعري الخاص ونمطه الحماسي الصادح في أقصى معاني التحدي, مما أثر في الذوق العام للشعب الفلسطيني وألهب حماسته, وخصوصاً حماسة الشباب الفلسطيني الأمر الذي أثار حفيظة المحتل بجعله رهينة الاعتقال ولمرات عدَّة.

ومن أهم أعمال الشاعر سميح القاسم: في مجال الشعر,(مواكب الشمس)و (دمي على كفي), و(سقوط الأقنعة) عن الموقف والفن, و(سأخرج من صورتي ذات يوم), و(لا توقظوا الفتنة) (سيرة ضجيج النهارات حولي) سيرة حزام الورد الناسف, و(نثر قرقاش), مسرحية ديوان الحماسة بجزئية الأول والثاني, وفي مجال النثر (إنها مجرد منفضة).

وقد حصل سميح القاسم على جوائز عالمية ومحلية بالغة الأهمية, منها جائزة (غار الشعر), من إسبانيا، وجائزتين من فرنسا وذلك بعد أن ترجمت بعض أعماله إلى اللغة الفرنسية، وجائزة عربية حملت اسم الاديب المصري العالمي (نجيب محفوظ), وقد حصل مرّتين على وسام القدس للثقافة، كتب سميح القاسم الأدبية في الشعر والرواية والمسرحيات لكنه برز في حقل الشعر بكتابته ما يزيد عن ثلاثين ديواناً, وفي مجال الترجمة لقد ترجمت أعماله إلى عدة لغات الإنجليزية والفرنسية والتركية والإسبانية والروسية والإيطالية.

ومن أبرز قصائده التي أثرت في الشارع الفلسطيني, وذاع صيتها قصيدتي, (خطاب في سوق البطالة), و (منتصب القامة), فقد كان للشاعر سميح القاسم حضوره البارز في الساحة العربية والعالمية, وكان لنصِّه الشعري صداه في المحافل الأدبية والثقافية حتى وإنْ غيبه الموت جسداً في العام 2014م, لمرض عضال لكنّه حاضرٌ بروحه شعراً, إذ لن تطوي الاعمار سير أصحاب القضايا الكبرى, الشعراء لا ينحسر دورهم بوجودهم المادي, بل بما يهبونه للوجود من سمو الحضور المعنوي الخالد.

المبحث الأول:

أدب المقاومة الفلسطينية

أولاً: أدب الداخل الفلسطيني

- **شعر المقاومة**

إنَّ الشعب الفلسطيني من الشعوب التوَّاقة إلى التشبث بالوطن لفرط حساسية الوجود والكينونة التي تشربت من أديم أرضها العريقة, وهو ما جُبلتْ عليه ابناؤها منذ القدم, على الرغم من تقلبات الزمان التي توالت من ازدهار أو انكسار, وصولاً إلى عصرنا الحديث تحديداً مطلع القرن العشرين, وهو ما ترك عظيم الأثر على الشعراء الفلسطينيين ويمكن لنا فهم ذلك من "نظرة عابرة على الشعر الفلسطيني منذ العشرينيات تؤكد الأهمية التي أولاها الشعراء للأرض في مختلف الأطوار التي مرت بها القضية الفلسطينية, والمؤكد أن هذه العناية ليست عفوية، ولا هي خاصة بشاعر دون آخر، وانما هي استجابة لمتطلبات وطنية، وانعكاس لظروف موضوعية كانت فلسطين مسرحًا لها "(1),الذي يتجذر فعلاً ابداعياً يمتدُ إلى عقود تترى, "تحمل الشعر الفلسطيني في مراحله المختلفة القضية الوطنية بوصفها قضيته الأساسية، واستقى موضوعاته في الثلاثينيات والأربعينيات من مهمات الحركة الوطنية التي تمثلت بالوقوف ضد الانتداب البريطاني والنضال ضد محاولات الحركة الصهيونية المتمثلة في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين "(2), الأمر الذي ألقى على الشاعر مسؤولية التصدي لعاديات الزمن التي تلقي بجورها على الوطن, "حيث كان الشاعر المرجع المباشر والمحرض السياسي والداعية إلى الثورة، كما كان صدى الصوت الجماعي، وأخذت القصيدة مكانها بوصفها أداة نضالية وسلاحًا مباشراً في كلّ مظاهر النضال والمعارك التي خاضها الشعب الفلسطيني في تلك الحقبة، وباختصار كان الشاعر يهدف إلى أن يكون فعالًا وقادراً على التأثير "(3), وأدب المقاومة في الشعر الفلسطيني, "قد حدد دوره بنفسه, وبالنسبة لشعراء المقاومة على وجه الخصوص فان الشعر سلاح, ما في ذلك شكٌّ, ولم تكن كفاءته وجدارته بالنسبة لهم إلّا التزامه بدوره المقاوم الواعي "(4), لقد أدرك أدب المقاومة "في وقت مبكر أيضاً الترابط بين الاحتلال الإسرائيلي وبين قضايا التحرير في البلاد العربية والعالم "(5), وإنّ ما تعرض له الشعب الفلسطيني من احتلال وسلب للأرض لم يقف حياله الشاعر بالنظرة السلبية إنما استثمرها, وبذلك" فتحت آفاقاً رحبة أمام الشعراء والكتاب في الأدب الفلسطيني الحديث، ومن ثمّ جعل أدب المقاومة والصمود ضمن الفروع الأدبية السامية والإنسانية التي شعر بها هذا الشعب بكل وجوده وجعله يعبر عن كوامنه وأحاسيسه بكل ما لديه من طاقات لغوية وإمكانيات فكرية لرفض القهر والظلم الخانق والزيف "(6)", "ومن سمات شعر المقاومة, أنّه" أدب لا ينوح ولا يبكي, ولا يستسلم ولا ييأس, ولا يناقض نفسه ويمر عبر تشنجات عصبية واهتزازات ناتجة عن سوء وعي الموقف وحقيقته, لأن رؤياه لم تكن عاطفية, ولكن وعياً عميقاً ومسؤولاً "(7), لذلك نجد شعر المقاومة من الأنواع الأدبية التي تحلت بالثبات والتصاعد على المستوى الفني والنوعي الابداعي, ويُقسم شعراء فلسطين لثلاثة اجزاء, الأول" داخل فلسطين المحتلة عام 1948 م، وقد تعرضوا للتجهيل و (العبرنة) ، والقمع الحضاري والثقافي؛ فحاولوا بمقاومتهم، وأدبهم وأشعارهم، وصمودهم فوق تراب أرضهم، أن يستمسكوا بعروبتهم، والجزء الثاني: الذي بقي في الأرض المحتلة عام 1967 م؛ فتعرض للاضطهاد والقمع، ولكنه بقي محتفظاً بجزء من خصوصية ثقافته وابداعاته، رغم ثقل حجم الاحتلال، واتساع سجونه ومعتقلاته وسطوة قيوده، والجزء الثالث: الذي اضطر إلى الغربة والابتعاد عن الوطن، فعاش غريباً يرجو العودة، رغم تلاحق الانتكاسات

العربية، ولكنه اتصل بحركة التطور العربية الحضارية والثقافية، ورغم تلك الغربة والتهجير القسري "(8) , وسيأتي الحديث عن الجزء الثاني والثالث بعدما خضنا بالجزء الأول.

ثانياً: أدب الخارج الفلسطيني

لقد خضع الشعب الفلسطيني إلى اعتى تمييز عنصري تمثل في الكيان الصهيوني الغاصب, التمييز الذي أثَّر تأثيراً سلبيّاً على نواحي الحياة كافة, إذ طال بتداعياته الواقع الفلسطيني وعلى مختلف الصعد, الفعل الذي ألقى بتداعياته الخطيرة مسؤولية التصدي للمشروع العنصري, الذي حفَّز الطبقة المثقفة والشعراء على وجه الخصوص تحمل مسؤولية التصدي لمشروع الهيمنة والاستحواذ على مقدرات الشعب الفلسطيني, وكان من نتائجه القمع الاسرائيلي التعسفي, فلا غرابه لو "إنّ الشاعر محمود درويش أودع السجن مراراً, وإنّ الشاعر سميح القاسم قد ذاق بدوره مرارة الاحكام العسكرية "(9), وضيقت على آخرين وقد نال من التعسف الاسرائيلي كوكبة من شعراء فلسطين بالطرد من الوظائف مثل الشاعر فوزي الأسمر وتوفيق زياد والقائمة تطول, ولعل ما قدم عليه الشاعر سميح القاسم من " موقف ثوري قائم على رفض الاحتلال الصهيوني و الدفاع عن الحرية و الاستقلال الذي به يجد التناغم و الانسجام الروحي, هي رؤية ثورية تسعى إلى إلغاء كل عناصر الواقع و مبادئه المقتنع بها ، ليتطلع بعد ذلك إلى بناء واقع جديد يتلاءم و روح الشعب الفلسطيني "(10), وعلى الرغم مما عاناه القاسم, " إلا إنه لم يغادر وطنه و بقى متمسكا به إلى حين وفاته ،فهو لم يغترب جسدياً ، بل اغترب روحياً ، جراء أوضاع الاضطهاد التي وضعها الاحتلال الإسرائيلي "(11), قدر الشعراء الوطنيين الذين يحملون قضايا شعوبهم.

- **شعر المنفى**

لا يندرج أدب المنفى تحت لواء نوع أدبي محدد, "أن أدب المنفى هو كل الأجناس الأدبية المعروفة من شعر ورواية وقصة قصيرة وملحمة ومسرحية "(12), فما امتاز به الأديب غسان كنفاني في الرواية, أبدع محمود درويش وسميح القاسم في الشعر, التنافس كان على ابراز الهوية الفلسطينية الأصيلة على الأرض منذ آلاف العصور, والنهوض بالقضية الفلسطينية وعدَّها القضية الأولى والمظلومية التي يجب الوقوف على المتسببين في استمرارها, وهو ما حدى بأدباء المنفى السعي جاهدين على "التعامل مع أدب المنفى بوصفه أدباً, لا بوصفه وثيقة تاريخية أو اجتماعية أو سياسية فحسب "(13), لتأسيس لأدب نابع من وجدان الشعراء الذين حملوا قدسهم في حلهم وترحالهم في بقاء الأرض من أقصاها إلى أدناها, لحقيقة المأساة التلقي تعرض لها الشعب من عقوبة جماعية, مادام الصوت الفلسطيني متوحد في الرفض للاحتلال وتدنيس المقدسات, "وبواعث النفي تتمثل في أسباب شتَّى, يجمعها في النهاية فكرة (العقاب), إلّا إن ثمة فروقاً بين (المنفيين), طوعاً أو كرهاً واللاجئين والمغتربين والمهاجرين, وإن كانت مصائرهم وأوضاعهم القانونية كثيراً ما تمتزج وتتداخل "(14), وهو ما ترك أثره الشاخص في نفوس ابنائه البررة, "أنه الشرخ

المفروض الذي لا التأم له بين كائن بشري وموطنه الأصلي, بين الذات وموطنها الحقيقي, فلا يمكن البته التغلب على ما يولده من شجن أساسي. "(15), والمنفي مهما ابتعد عن براثن المحتل الغاشم لا يجد في نفسه الجنوح للقبول بأرض بديلة عن الوطن لأنّه" ينظر إلى العالم أجمع باعتباره أرضاً غريبة"(16), وكل الأمان دون فلسطين أمكنة معادية لروحه المرتبطة بطينها وهوائها ومائها وما عيشه خارج رحمها إلّا "ابعاد عن الوطن ونبذ, ونزع للألفة, والمنفى منزلة بين منزلتين, زمكان مؤقت يقع بين زمكانيين, أحدهما ماضٍ قد صيغت ملامحه في الوطن المُبعد, والآخر وشيك الحدوث في المستقبل القريب, (الموت) "(17), وما يترتب على المنفي " عزلة تعاش خارج الجماعة بإحساس بالغ الحدَّة: حيث يشعر بضروب الحرمان لعدم وجود المرء مع الآخرين في الوطن المشترك "(18), القساوة التي تفرضها قوى الاحتلال على الشعوب المغلوب على أمرها وليس هناك من يحمل مشعلها غير من اكتوى بنارها فهو الأمين على ايصال ما تعرض له الشعب المحتل, ليس على فرض ان المنفى فترة انتقالية بين حال وحال اخر أفضل يأتي من بعده, بل هو ديمومة الغشم والغطرسة التي لا تبارح المخيلة الشعرية لأنهم من خير من خاض تجربة النفي بوصفه "ذلك (البرزخ), أو هو ذلك الاستثناء بين الحياة والموت, إنه البينيّة لكثير من البشر والفنانين والكتّاب في مجتمعاتنا المعاصرة "(19), المذاق المرّ الذي نال كأسه أجيال متعاقبة من الفلسطينيين ولم تبارحهم تلك المرارة إلى يومنا.

- **شعر العودة**

حقُّ العودة إلى الوطن من الحقوق التي كفلتها المواثيق الدولية والنواميس والأعراف الإنسانية, فكلّ كائن حي له وطنه الذي يأويه, وإنْ كان الحديث عن الانسان قد لا يختلف اثنان على الحق بالسكن والتملك وحرية التنقل, وهو ما أقرته دساتير العالم الحديث ناهيك عن الذي أقرته الأمم العريقة في سالف الازمان, الأمر الذي لا نجد له صدى يذكر عند الحديث عن حقوق الشعب الفلسطيني في المنفى "واستمرار التنكر لحقوق اللاجئين المهجرين الفلسطينيين، ومنعهم من الحصول على حقهم بما يضمن حق العودة إلى الديار واستعادة الممتلكات"(20), العقاب الذي تجرعه الشعب الفلسطيني في المنفى, وهو ما يدعونا على البحث في خبايا ادراج السياسة الاسرائيلية التي قد تبوح عن "سبب آخر وهو طبيعة الاحتلال بما يمارسه من فكرة الاحتلال وطمس الوجود الفلسطيني، بسرقة هويته وتاريخه ونسبها لنفسه "(21) مما أثار حفيظة المثقف الفلسطيني والذي وجه سهامه "باتجاه المعركة الثقافية للحفاظ على الهوية وملامح الثقافة الفلسطينية، فكان أدب العودة أبرز الأسلحة الثقافية " (22), لإيمانه الذي لا يتزحزح بقضيته العادلة على الرغم من حملات التشكيك, فهو يسعى لتوجيهها الوجهة الصحيحة خدمة لقضيته العادلة "اذا ما كان المنفى الحقيقي, حالة فقدان مبرم, فكيف أمكن له أن يتحول بتلك السهولة إلى حافز قوي, بل ومخصب, من حوافز الثقافة الحديثة "(23), في تأسيس لشعب حرٍ كريم على الرغم من موجة العدوان والنفي والتجبر في استخدام القوة المفرط, نجد "هؤلاء وسواهم الكثير من

الشعراء والكتاب المنفيين يضيفون كرامة على شرط شُرع له أن ينكر الكرامة, وأن ينُكر هوية الشعب " (24), وكما هو معروف أن الادباء" يواجهون بالكلمة والموقف معا مختلف الأزمات التي تهدد الحياة والوجود والانتماء وهوية الثقافة المتجذرة في الامة وتراثها"(25), والشعب الفلسطيني " أحوج الشعوب العربية إلى هوية قومية لأنه عجز وسيظل عاجز بإمكانيته الذاتية عن تحقيق أهدافه في التحرر والعودة "(26), فما يتطلبه الشعب الفلسطيني لأثبات هويته الوقوف معه في محنته وقفة جادة بعيدة عن الشعارات ليقين الأمم "إن الإنسان في جوهره، ليس سوى لغة وهوية، اللغة فكره و لسانه وفي الوقت نفسه انتمائه"(27) ، ومادام الشعب حيٌّ بما يحمل من قيم سامية, يمكننا النظر إليه كشعب خلاق, لا تثنيه النكبات, شعب مستعد لإعادة انتاج نفسه من جديد "ولعلَّ من نتائج النكبة بجراحها تلك المصطلحات المختلفة ك(:الشتات، الغربة، النفي، اللاجئين)، ثمَّ كان مصطلح العودة وتأسيس" أدب العودة "نتيجة حتمية للهزيمة التي يجب تجاوزها " (28), من الضروري تجاوز الهزيمة والتخفيف من آثارها السلبية لقدرة الشعب على فرز حقيقة عدم تكافئ القوى, لكنه يؤمن بالمقاومة, وعدم الاستسلام فبرز للعلن أدب العودة الذي " نتج عن هجرة اضطرارية، وكان مفعماً بمشاعر الحنين الإيجابي وكان أدباً يحمل قضية ورسالة "(29), ولرسوخه الفاعل في الوجدان العربي وتجذره في الادبيات الفلسطينية على اعتبار أنَّه توافق مع ما تعرض له الشعب الفلسطيني من احتلال ونفي, توجبا التأسيس لهزة ارتدادية توازي فعل الاحتلال فكان أدب العودة.

المبحث الثاني:

موضوعات شعر المنفى والعودة

- شعر المنفى

ما تركه النفي من آثار نفسية عميقة عند منفييّ الشعب الفلسطيني, ترجمه أدب المنفى قولاً شعرياً نابعاً من صميم القضية الفلسطينية, وهو ما حرص على تجسيده الشاعر سميح القاسم شعراً في أغلب نصوص المجموعة الشعرية "دمي على كفي "(30), المنضوية في مجلد ديوان سميح القاسم والذي تبيَّن لنا من خلال العينات التي تم انتخابها فداحة المعاناة التي تلقاها ويتلقاها الشعب الفلسطيني من ضروب التعسف الاسرائيلي المغتصب للأرض, وما اسفر عنها من تنامي مشاعر الازدراء, نتيجة النفي والتي انعكست نتاجاً شعرياً تمثل في موضوعات سلطة (الانتماء, المكان, الانتظار, الحنين).

1-1سلطة الانتماء

لقد فسح شعر المنفى المجال لظهور المشاعر الكامنة خلف أسوار الوطن وما يعتمر الصدور من فقد استثنائي للوطن يشعر به المنفي عن وطنه, ومعاناة الشعب الفلسطيني خير مثال على العنت الذي نتج عن النفي, الرحيل الذي يؤرق الرأس بدواره, النأي الذي يخلف من بعده محنة المواجهة مع الماكثين في الأرض, وما

يستقونه من عذابات (السل, الطوفان, والحريق), البنى التي صرح بهما نص (قميصنا البالي), في المقطع الأول, لقوله:

"إماه:

إني راحل

رأسي يصدعها الدِّوار

أنا راحل

والسل والطوفان بعدي والحريق "(31)

الشاعر مدرك حجم المأساة التي تنذر بها الأيام, ولذلك يبتدأ الشاعر في المقطع الثاني من النص بقوله: (حمل المهاجر ما يريد), بعدما خلف بعده من معاناة الفقد, ويسبح لله الذي (الذي يعطي البنين ويستعيد), الامانات يقبضها إليه كما يقبض الاحتلال حياة الأوطان ويحيل خضرتها إلى يباس المنافي, هائمة من غير أرض (جسد), يقيها عاتيات الزمن من بؤس وتشرد وحرمان, وفي جملة (بكيت طول الليل في صمت), يصرح الشاعر بانهياره لهول ما واجهة من مصير مظلم, مما استدعى مواجهة الأرض (الوطن), التي تركته وحيداً في مواجهة المصير المحتوم, وهي لا تفعل شيئاً غير التحديق بتابوت الظلام.

"حمل المهاجر ما يريد

ومضى

فسبحان الذي يعطي البنين ويستعيد

وبكيت طول الليل في صمت

محدقة بتابوت الظلام

لم تفهمي .. وصغيرك الغالي

لم يدرِ أن قميصه البالي

مادام يخفق في رياح الحزن والشدة

ستظل تخفق راية العودة "(32)

ويستثمر تصاعد الوجع لهول الفاجعة ليسرف في العتب والمواجهة مع الأرض الانتماء الحقيقي, الرحم الذي يألف الوليد منه كل حنان وعطف ورعاية, وكأنه يوجه صعقة كهربائية علّها تستعيد قوتها وجلدها من أجل مواجهة العدو المحتل الغاشم الذي استهتر بالحياة, ففي وصيته الأولى للأم (الأرض, الوطن), يشدد عليها بالقول: (لم تفهمي .. وصغيرك الغالي), وما تلاه من أشطر إلّا ايضاح للفاقة التي سيمرُّ بها, والحزن والشدة, لكن حلم العودة ماثل نصب عينيه, (ستظل تخفق راية العودة), ليتجاوز محنة النفي, ويعيد انتاج الانتصار على الرغم من الهزيمة ومواجهة الشتات.

ثمَّ يعيد إلى الأذهان التذكير بالقضية الفلسطينية بالوصية الثانية للأم, كي توصي أخاه في جملتي (فخذي أخاه وافهميه/ أن المذلة أن يبيع ثرى أبيه), لإدراك الفلسطيني إنَّه للآن ليس بموضع مذلة, بل هو في محنة من سياق النص, المذلة تكمن في بيعه ثرى أبيه, السديم الذي توالت على منبته الأجيال, الذي لو بِيع أواُستبدل بثرى غير ثرى الآباء, لصار هبة مجانية للمحتل الغاشم وخنوع ما بعده خنوع, واندحار لأسس القضية الفلسطينية العادلة.

"و افهميه

أن اختلاج الروح في البذرة

أقوى من الصخرة

وجذورنا في رحم هذي الأرض ممتدة "(33)

وتأتي الوصية الثالثة المتممة لسالفتيها والمؤسسة لمنهج الشموخ والعزة, بعدم أوصاها أن تفهم أخاه ان ما يخامر الروح من اضطراب في البدرة, إن هو إلّا ثبات وتمركز يفوق قوة الصخرة, لحقيقة إنّ (جذورنا في رحم هذي الأرض ممتدة), فما تكسبه الأصالة الفلسطينية بالتضحيات الجسام لمستقبل أبنائها لا تفقده المنافي مهما طالت زمن المكوث فيها.

وقميصنا البالي

ما دام يخفق في رياح الحزن والشده

ستظل تخفق راية العودة

ستظل تخفق راية العودة "(34)

في المقطع من النص الشعري كرر مقطع ترنيمة راية العودة والصمود والبقاء على عهد المقاومة والثورة كاملاً غير مبالٍ من قوى الاحتلال بالتمادي بالإقصاء عن أرض الوطن, غير طامع بالعودة على حساب الثابت الوطني المقاوم.

1-2سلطة المكان

تبرز سلطة المكان في النص الشعري (الجواد الجامح), على الرغم من تجوال الشاعر في مختلف اصقاع المعمورة (باريس, بيروت, موسكو), المكان (مسقط الرأس), حيث الانتماء للأرض بما تحمل الكلمة من دلالة عميقة, ممثلة في لكز جامح الأحزان, مطلقاً العنان لجوادها الجامح, الذي يتوافق وما يستعر في صدره من ظمأ الشوق إلى الديار ومرابع الصبا والشباب والأمنيات في تغذية للسير باتجاهها, لقوله:

"-"هنا باريس "

- "هنا بيروت "

-"هنا موسكو "

*** * ***

وألكز ، جامح الأحزان، صدر جوادك الجامحْ

وفي سغبي وفي ظمأي

أغذَّه السير ... يا معبودي الجارح!" (35)

تتصاعد الحماسة في النص ردة الفعل الطبيعية لعنت المنفى وقساوة فعل المحتل الغاشم, والذي مهما تجبر لم يفتْ في عضد الشعب الفلسطيني, مستمر في النضال و رفض المنفى, مجدداً عهد الدعوة للمقاومة, ويأتي ذلك في تكرار القسم (يميناً), في أول المقطع التالي ليؤكد المضي نحو المواجهة, لقوله:

"يمينا أيها المولى

يمينا أيها الجاعل من أشواكنا قُلّا

يمينا لن نبيع الجرح

مهما ساومت مدية

ولن تبقى شقيقتنا

طوال الدهر ... مسبية ! "(36)

فلم يرتضِ بيع الجرح, أي بيع القضية الفلسطينية, مهما ساومت (مدية), على التوغل في الجسد الفلسطيني, وتقطيعه إلى أوصال على مستوى الخريطة, وتعريض ابنائه للمنافي مستهدفاً الموارد البشرية ثروة الوطن الفاعلة, ومن البداعة بمكان تغيير مسار النص الشعري بالتخلص من الخيطية في النسج, إلى المفارقة في الطرح, لقوله: (ولن تبقى شقيقتنا/ طوال الدهر ... مسبيه !), لتشتيت ذهن العدو لسعة الأفق النضالي ومدى اتساع العقلية المقاومة الذي انعكس ايجاباً على مخيلة شعراء المنفى, إذا ما علمنا مدى تأثير الصوت المقاوم في أروقة الاعلام والبيوتات الثقافية خارج فلسطين المحتلة.

ويكرر الشاعر استدعاء الأمكنة التي تعاطت مع المنفى وتقبلته واحتضنت فيه ذاك المنفي عن وطنه, (عمان, روما, بغداد), لكنه لم يرتضِ لنفسه منبتاً غير فلسطين, لقوله:

"هنا عمان "

"هنا روما "

" هنا بغداد "

* * *

فكيف نفرُّ؟ كيف نفرُّ من منبتنا الأرضي ؟ "(37)

ليعاود الشاعر التكرار في جمل النص الشعري, مستمداً من استراتيجية السؤال الذي يحمل في طياته التعجب هذه المرة, ابتداء من نهاية شطر المقطع الآنف مرور بشطري المقطع التالي, بسؤاله (وكيف نبيح للنسيان أحيالاً من البغض؟/ وكيف ؟ وكيف ؟ لن نهدأ), التكرار الذي يؤسس لعدم نسيان بغض الفعل الاجرامي الذي اقترفه المحتل, الفعل المخالف للأعراف الانسانية, ولأعراف العالم الجديد الذي يزعم الدفاع عن الحريات المغتصبة مهما صغر حجمها أو كبر, وهو بهذا يفضح فعل الاحتلال ومن داهنه أو سكت عن ممارساته للاحتلال والنفي ورفض الاعتراف بحق العودة للفلسطينيين من أرض الشتات, إذ يقول:

"وكيف نبيح للنسيان أحيالاً من البغض ؟

وكيف ؟ وكيف ؟ لن نهدأ

وملء عيوننا المرفأ

ونار جبيننا المشجوج لن تطفأ

بغير ضمادك الرحمن .. يا ايقاع أحرفنا "(38)

ليبقى المنفي يرسم للقادم من الأيام بقنديل الرؤية الثاقبة للفلسطيني المقاوم, الذي ملء عينيه المرفأ, وما المنافي إلّا محطات طال فيها المكوث أو قصر في تسليم لحق العودة, عزاؤه في ذلك إنَّ (نار جبيننا المشجوج لن تطفأ/ بغير ضمادك الرحمن .. يا ايقاع أحرفنا), حقُ العودة الحلم الذي يراود شعب المنافي لصدقيته فهو أمر محتوم التحقيق.

1-3سلطة الانتظار

نلمح في النص الشعري (إلى حارس فنار عكا), تنامي ثيمة الانتظار, الثيمة التي تتماهى وانتظار المنفي لشوق اصطياد فرصة العودة لممارسة حقَّه في العيش, بعدما (ملَّت شباك الصيد الانتظارْ), الانتظار الذي يتعالى من بين ثناياه نداء (حارس الفنار), وبوح عن حديث يجيش في صدره عن القارب المهجور المُغطَّى الدفة برمال الشاطئ ذي الجنب المكسور, في توصيف صوري لحالة القارب (الوطن), لقوله:

"ملَّت شباك الصيد الانتظارْ

يا حارس الفنار

والقارب المهجور

غطَّت رمالُ الشطِّ دفَّته

وجنبه المكسور "(39)

يسترسل الشاعر في عرض ما آل إليه وضع القارب (الوطن), نتيجة انتظار صيد الشباك غير المجدي والذي ترتب عليه نتائج وخيمة ليس أقلها (وكاد أن يورق-/ مجذافه المطمور!), ولا اخرها نداء حارس الفنار بالمساعدة لإنقاذ حبال الجار, الجار ابن الجلدة الذي صار من شيمه التغاضي عن نصرة الجار الجنب, وخزة من الشاعر لم تفت في عضد صاحبه (المنادى), إذ يقول:

"وكاد أن يورق-

مجذافه المطمور!

يا حارس الفنار

انقذ حبال الجار

من قسوة الأمواج والأمطار

تهرَّأتْ يا صاحبي .. تهرَّأتْ

والجار

غداً يعود ضاحكاً...

للصيد والفنار !! "(40)

محاولاً اغراء حارس الفنار (الجار) لما سيكون عليه من مستقبل زاهر لو تقبل نصرته بعدما قست الامواج على حبال شباكه, لقوله: (غداً يعود ضاحكاً.../ للصيد والفنار !!), ولا أظن الدعوة تلقى ترحيباً ذا قيمة فعودة الجار للصيد والفنار, لو كانت لتحققت من سنين, فالجارُعلى حباله البالية للآن.

1-4سلطة الحنين

تتضح في نص (يوسف), سلطة الحنين وما يخامر الروح من الشوق والانتماء الذي يكنه الإنسان لأخيه الإنسان في الداخل والخارج, حيث يعلو صوت المحبة بينهم لقول الشاعر: (يا إخوان .. يا جيران .. يا أصحاب), النداء يجمع طيف المحبة الفلسطيني, حيث يبادر الشاعر في مطلع نصه الشعري إلى قص خياماً من جلده, لتقي ابناء جلدته تقلبات الطقس, وليرمم مضارب احزانهم بدموع حمر يسقي بهن شتائل الورد, لتزهر ايامهم ربيعاً يزدان بالأمل, ويبقى دائم السؤال عنهم عند هبوب الريح في ذهابٍ وايابٍ, (وأحرص أن أحدِّثها/ ولو ظلت بلا ردّ), الحنين الذي لم يسبقه إليه أحدٌ في إظهار سلطته المتناهية والنزوع القوي نحو التشبث بالأرض, لقوله:

"أقصُّ لكم خياما .. أيّها الأحبابُ

من جلدي

وحول مضارب الأحزان

أسقي بالدموع الحُمر

كلَّ شتائل الورد

وإن هبت علي الريح..

أسألها!

وإن عادت.. أحملها..

وأحرص أن أحدِّثها

ولو ظلت بلا ردِّ "(41)

في المقطع التالي يتعالى صوت (السلام, النداء, السؤال), في آن واحد للتشابك المشاعر في كون فلسطيني يسع تلك المشاعر, الكينونة التي جبل عليها الفلسطيني على الانكفاء على الحنين والحزن تعويضاً عن الوطن الذي غادرته مقومات السعادة والأمل, لتولع ابناؤه بالمنافي علَّها تنجي نفسها من طائلة الاغتيال الجسدي وإنْ تقطعت أوصالها في قاع التصفية المعنوية, المصيدة التي لا فكاك من ربقتها, وهو ما دعا الشاعر إلى تطويق نصَّه الشعري بجوٍ مشحون بالحنين والعاطفة الجياشة, من أجل استيعاب مشاعر المنفيين والاحساس بهم, لقوله:

"سلامً.. أيها الأحباب

يا إخوان .. يا جيران .. يا أصحاب

سلاماً!

كيف أنتم في فصول الحر والبرد

وكيف الحال على الأطفال؟

وكيف رفاقنا الموتى؟

هل اعتادوا وراء السور طول الليل .. والصمتا؟

وكيف إمامنا يعقوب؟ –

تُرى ما زال – يا ناري على عكَّازة الوجدِ

يد.. من طول صمت الثَّكل

لاصقةٌ على الخدِّ

وأخرى .. في قميص الدمِّ

غائصةٌ بلا حدِّ!؟ "(42)

يستثمر الشاعر العاطفة حتى في طرح السؤال عن الحال, مستغلاً فرط عقد المحبة وهدر كرامة الانسان وصولاً للأطفال, وهو بسؤاله عن فصول الحر والبرد وحال الأطفال يعرف جيّداً ليس هناك من سائل يسأل, ويبادر بالسؤال عن رفاقه الموتى, (هل اعتادوا وراء السور طول الليل .. والصمتا؟), وخزة متقنة لمن أهمل

السؤال عن الأحياء, فما بطن من ثيمة الحنين من معنى أبلغ وأمضى في إيصال الرسائل, عن جدوى الإخوان وتداعيات الاهمال الذي يطال أخوتهم, الالتفاتة التي نضجت بالسؤال (وكيف إمامنا يعقوب؟), التفاتة لا تخلو من نبرة توبيخ لأخوة فلسطين الذين حرصوا على تركها للثكل (لاصقةٌ على الخدِّ/ وأخرى .. في قميص الدمِّ/ غائصةٌ بلا حدِّ!؟), الحال الذي انتهت إليه اختهم فلسطين, في تناص مع قصة نبي الله يوسف, والتي توضحت كذلك من عنوان النص الشعري (يوسف).

يحرص الشاعر على رسم بحبوحة من الأمل مغلفة بالحنين, منادياً (أحبائي! أحبائي!), التكرار الذي يبغي من وراءه شدَّ انتباه السامع إليه, عندما تشبع من حديث الحنين, ليكسر أفق توقعه بلعبة تبادل أدوار, وهذه المرة عن حديث الريح عن (ماذا يريد سميح ؟), وما كان منه إلَّا مبادرة عودة الجسد إلى الروح (أبشرهُ.. أبشرهُ.. /بعودة يوسف المحبوب!), يعقوب (الأرض, فلسطين, الجسد), يوسف (الأحباب, الأبناء, الروح), لقوله:

*** أحبائي! أحبائي!**

اذا حنت علي الريح

وقالت مرة: ماذا يريد سميح؟

وشاءت أن تزودكم بأنبائي..

فمُروا لي بخيمة شيخنا يعقوب

وقولوا: إنني من بعد لثم يديه عن بعد

أبشرهُ.. أبشرهُ..

بعودة يوسف المحبوب!

فإن الله والإنسان..

في الدنيا .. على وَعْدِ!! " (43)

الرسالة العميقة التي تتلخص بالقيم العليا من وراء ثيمة الحنين وما يترتب على فعلها من وضع الأمور على نصابها, فلا بد من عودة الأرض إلى أهلها, البديهة التي جُبل عليها الخلق, من عدالة السماء والأرض وهو ما أكد عليه الشاعر في جملته الشعرية الأخيرة (فإن الله والانسان../ في الدنيا .. على وَعْدِ), الأمل بمقبل مزدهر يحظى به المنفيون في اصقاع البلاد القريبة والبعيدة.

شعر العودة

بعد حيف المنفى وما لاقاه الشعب الفلسطيني من صعوبات العيش بعيدا عن أرضه, تطلع إلى العودة على الرغم من الموقف الرافض الذي تبناه الاحتلال الاسرائيلي, العقبة الرئيسة بوجه طموح الشعب القابع في أرض الشتات, إنَّ الحيف الذي وقع على الشعب الفلسطيني لا نجد له مثيلاً في العصر الحديث, وما تعرض له من تضييع للهوية العربية الفلسطينية تجيب على تجرع مرارته الشعوب التي انصهرت هويتها إلى غير رجعه, الأمر الذي دعا الفلسطيني حمل قضيته في جميع المحافل, محافظاً على الهوية مهما تعرض له, وحرص على شحذ همم المقاومة في الداخل, والمطالبة بحقِّ العودة ورفض المساومة على اعتبارها الحقّ الشرعي للفلسطينيين, وهذا ما حرص على تشييده الشاعر سميح من ثيمة في نصَّه الشعري لغرس روح الأمل ومعاني الفداء.

2-1- رفض المساومة

لقد أثبت الشعب الفلسطيني عبر تاريخه النضالي عدم مساومته على المبادئ والحق الوطني في الحرية والاستقلال والعودة ايماناً منه بعدالة المطالب والتي صارت من مسلمات الوجود في العالم الحديث بعد اختطت السياسة معالم الدول الحديثة من خرائط توضح حدود الدول وما يجاورها من بلدان قريبة الصلة من حيث الجغرافيا تارة أو الانتماء العرقي تارة أخرى, ومن غير اللائق ونحن في الألفية الثالثة للميلاد ومازالت دول تخضع لاحتلال دول أخرى, إلّا الدولة العبرية المغتصبة تسعى بما تملك من قوة على مسح الإرث العربي الفلسطيني من خلال طمس الهوية والحق بالوجود, متجاوزة ما مرَّت به المنطقة العربية من قسوة الانتداب او الاستعمار أو تداعياته من تدخل قريب أو بعيد في الحكم بالانقلابات العسكرية أو بتنشئة دول لا قيمة لها على الخريطة الاقليمية أو العالمية مقارنة بالبلدان العريقة, الأمر الذي تنبه له الشعب الفلسطيني وان دفع ثمنه النفي, لكنه رفضه ورفض المساومة على العودة على حساب الوطن, وهذا ما يمكننا قراءته في نص (خطاب في سوق البطالة), لقوله:

"يا عدو الشمس. ، لكن ، لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي .. سأقاوم

يا عدو الشمس..

في الميناء زينات، وتلويح بشائر ..

وزغاريد، وبهجة

وهتافات, وضجة

والأناشيد الحماسية وهج في الحناجر

وعلى الأفق شراع ..

يتحدى الريح .. واللج.. ويجتاز المخاطر.. "(44)

في مطلع النص وفي الشطر الثالث تتكرر جملة (يا عدو الشمس), في استهلال لتقبيح عداوته للشمس, الحقيقة التي لا تخفى بغربال المحتل, فلا غرابة لو يصرح الفلسطيني المنفي بعدم المساومة وبقول شديد (يا عدو الشمس. ، لكن ، لن أساوم), رفض قطعي يشمل الحاضر والمستقبل بدلالة (لن أساوم), ولن يقف عند هذه المفصلية بل جعلها عدم مساومة مقرونة بالمقاومة, لتأخذ مدى أوسع وأشمل, حتى أنّه يرسم صورة للقادم من بشرى الرفض بعودة المنتصر, بدلالة قوله: (في الميناء زينات، وتلويح بشائر ../ وزغاريد، وبهجه/ وهتافات, وضجه), وتتعداها إلى أناشيد حماسية, وما يحدثنا به الشاعر الرائي (وعلى الأفق شراع ../ يتحدى الريح .. واللج.. ويجتاز المخاطر..), تعبيد الطريق للعودة الحتمية التي يحرص العدو على التغافل عنها وجعلها من المستحيلات, التمني الذي ترتضيه الماكنة الاعلامية للاستهلاك المحلي للمحتل, وترفضه بسالة الفلسطيني الذي يؤمن بعودة (بوليسيز) من بحر الضياع (المنفى), الفلسطيني بحقيقة الارض الفلسطينية وزيف أرض العالم لو أرادوها لفلسطين بديل, سرُّ قوته في المقاومة والوجود, لقوله:

انها عودة بوليسيز

من بحر الضياع ..

عودة الشمس ، وإنساني المهاجر

ولعينيها ، وعينيه .. .. يمينا ، .. لن أساوم ..

ولعينيها ، وعينيه .. يمينا .. لن أساوم ..

وإلى آخر نبض في عروقي..

سأقاوم..

سأقاوم..

سأقاوم !! " (45)

يؤمن الفلسطيني بعودة الحرية لأرضه كما يؤمن بعودة إنسانه المهاجر, ويؤمن بكل مقدس لديه (ولعينيها ، وعينيه .. يمينا .. لن أساوم ..), أبداً لن يساوم, ويؤمن رابعة إلى اخر نبض في عروقه سيقاوم, مرتضياً لنفسه الحياة الأبدية على الخضوع والمساومة.

2-2- روح الفداء

لقد تشرب الشعب الفلسطيني التضحية وتنامى في روحه الفداء, فتراه يمني النفس بصدق القول وتحمل الريح من سلاماً لثائرين يشتلون النور في بلاد الأحرار لا فرق (في النيل .. في الكونغو .. وفي فيتنام!) متجاوزناً في أماني الفداء الجغرافيا والإثنيات الضيقة, سارحاً برحاب الانسانية الحر كافراً بقيود الخرائط, إذ يقول:

"لو

لو يصدق الكلام!

و تحمل الريح .. ولو سلام

من ثائر في الشرق

لثائرين يشتلون النور في الظلام

لثائرين إخوة .. لا فرق

في النيل .. في الكونغو .. وفي فيتنام! "(46)

والشاعر مدرك إن الأقوال لا تصدق ليصوبها بالأمنيات لقوله: (لو تصدق الأحلام!), ويكون له جناح ليمتطي الريح, (وفجأة .. أحطُّ في الكمين قبل معركه), يقفز من جذع إلى جذع وهو مدججٌ بترسانة حرب (قنبلة, مدفع رشاش), رغبة الفدائي (لموسم . .. من بعده مواسم الحصاد), وما يتلوه من حياة (من بعده .. شقشقة الفراخ في العشاش!), حلم الفدائي الشاعر بكم الجور والتعسف الذي ناله ابناء الجلدة, ولكي يزيح عنهم بعضاً من قسوته, أخذ يلقي بروحه إلى التهلكة, فداء لمستقبل فلسطين علها تهنأ في العشاش, لقوله:

"لو تصدق الأحلام!

وفجأة .. يكون لي جناح

وأمتطي مركبة الرياح

وفجأة .. أحطُّ في الكمين قبل معركه

أقفز من جذع .. إلى جذع .. إلى خندق

يشدني تحفز للمحة .. لحركه

في قبضة قنبلة .. وقبضة للمدفع الرشاش

وإصبعي . تشنجٌ ولهفةٌ لضغطة على الزناد

لموسم . .. من بعده مواسم الحصاد.

من بعده .. شقشقة الفراخ في العشاش! "(47)

2-3-إشاعة الأمل

يحرص أدب العودة على إشاعة الأمل في الجسد الفلسطيني بعدما واجهه الويلات الجسام, الثيمة التي نجد لها صدى واضح في نص (لن), بعد سقوط الميّتين تباعاً ودعوة البلاد لحراسة الشراع (عائد فارس الريح عائد!), الجدوى من حراسة الشراع, لقوله:

واحداً تلو واحد..

يسقط الميتون تباعاً

فاحرسي يا بلادي الشراعا

عائد فارس الريح عائد! "(48)

والنص يؤسس لحياة بعيداً عن الميّتين وما يتخفى تحت هذه اللفظة من معنى عميق, يندرج تحتها (المحتل, المتخاذلين, والخونة), وهو ما وجد له صدى في المقطع التالي, إذ يقول:

"قطرة تلو قطره...

يمطر الدمع فوق الصحاري

فابشري باخضرار

يا سهوب الرؤى المكفهرّه "(49)

يبتدئ الشاعر القول بالأمل المشوب بالحذر (قطرة تلو قطره..), ولم يقل انهمار تلو انهمار , لعلمه بحجم السقيا التي يتمكن من التحصيل عليها إنْ كان (يمطر الدمع فوق الصحاري), وكم هو عزيزٌ سقيا الدمع, وكم هو فادحٌ ظمأ الصحاري, مقارنة منطقية لجسامة التضحيات المقدمة من المنفيين من أجل اخضرار سهوب الوطن بعدما اكفهرت من شحّ اعتراها, أسهم المحتل في اتساع رقعة تصحره, لكن إشاعة الأمل هدف ليس بعيد المنال.

"كان أمسا مقيتاً

داسنا باحتقار وولى

وغداً لن نبيتا

مزقا تذرع الأرض وهنا وذالا

قسماً.. جذرُنا لن يموتا!

قسماً.. دمُنا لن يُطلَّا!! "(50)

في النص الشعري مقتٌ للأمس فهو بنظر الفلسطيني المنفي المطالب بالعودة تاريخ محتقر وولى بما في ذمته من عنت, لكن الغد لنا ويكرر القسم في آخر شطرين, ويحقُّ له القول ببقاء جذره حيَّاً ودمه لن يُطلَّا, سائراً إلى الحرية فهو من الدماء الحرَّة غير المقيدة, في النص تحدٍ يدعو لإشاعة روح الأمل بحاضر ومستقبل يعبران عن تطلعات الشعب بالعودة إلى أرض الوطن.

2-4- ثقافة العودة

لقد تدرج الشاعر في تدرجاً منطقياً حتى أوصلنا إلى التثقيف نقطة مفصلية, تمثل بثقافة العودة, الذي لم يتحقق لولا حضور الثيم النصيّة الآنفة (عدم المساومة, روح الفداء, وإشاعة الأمل), البناء التصاعدي الذي يمكننا اعتباره مؤشر تميز شعر سميح القاسم, إنَّ القول بثقافة العودة يعني الايمان بالقضية والعمل على التثقيف بها لأنّها حق للشعب الفلسطيني بعدما عانى من الاحتلال و النفي, و القضية الفلسطينية من أكثر القضايا يعي العالم بدقائق تفاصيلها, بعدما تشبعت عنواناتها العريضة بالاطلاع والمناقشة, ولعل أدب العودة من مصادر التعريف بالقضية الفلسطينية, ويمكننا التوصل لهذا المورد من خلال فحص نص (الجسر), لقوله:

"ودرب المجد!.. هل تفهم.. درب المجد!

فخذ من أدمعي ما شئت

سأوقد مشعلي بدمي

وأصبغ رايتي بدمي

سأفقد لقمتي الشوهاء، أحفى، أشتهي، أعرى

وأملأ معدتي ..شعرا! "(51)

إنّ قراءة مستفيضة لمطلع النص, (ودرب المجد!.. هل تفهم.. درب المجد!), تمحنا فهماً يوازي استفاضة القراءة, من خلال الخطاب الجمالي الذي يحمله النص في جنباته التي تضيء المنطقة المعتمة من درب المجد,

بسؤال الفهم, الذي يفتح الأفق بتكرار المخاطبة, والذي ينم عن معرفة الفلسطيني بدروب المجد فهو وليس بشعبٍ طارئ, مع يقين الشاعر بعراقة الشعب الفلسطيني, لكنه أراد أن يوصل ثقافة العودة إلى الواجهة, عندما خاطب المجد في الجملتين الشعريتين, (فخذ من أدمعي ما شئت/ سأوقد مشعلي بدمي), يعلم جيّداً مع من يتحدث وخبر جيّداً مدى كرم وتضحيات الفلسطيني, وخبر صبغه لرايته بدمه, وما يصرح به من قول: (سأفقد لقمتي الشوهاء، أحفى، أشتهي، أعرى/ وأملأ معدتي ..شعرا!) مدرك فقده للكثير قبل ذلك من دون أن يرف له جفن, لكنها لغة ثقافة العودة التي يهدف بها ومن خلالها إلى نشر قضيته العادلة, على محمل الوعي والجدية في ايصال فحوى قضايا المصير, ويسترسل إذ يقول:

"فقد أقسمت .. قد أقسمت

بالميلاد في أعماق انساني!

سأعبر جسرك المشؤوم!

يا تيار أحزاني

سأعبره.. سأعبره..

لشط العالم الثاني!! "(52)

على الرغم من المآسي التي ثقف الشاعر العالم بها عن قضيته, يقسم بما يملك من عقيدة راسخة لا تتزعزع, بعبور جسر التحديات بما فيه من شؤم أو بما يتعاظم تحته من تيار الاحزان من نكسات وهزائم ونفي, (سأعبره.. سأعبره../ لشط العالم الثاني!!), ثقافة العودة التي جُبِلَ الفلسطيني عليها, والذي نجح في استثمارها من أجل تثقيف العالم بقضيته, وبمجرد ذكر كلمة العودة يحضر في الذهن الفلسطيني المنفي وهذا ما يحسب للمثقف والأديب الفلسطيني والماكنة العالمية بشكل عام.

النتائج

- يعدُّ شعر المنفى والعودة من الأدب الفلسطيني الذي لاقى اهتماماً يتوافق وجديتها في تبني القضية الوطنية العادلة للشعب الفلسطيني.
- شعر المنفى والعودة لا يقل شأناً عن شعر المقاومة, إذا ما أدركنا إنه يكمل مشروع التعريف بالقضية الفلسطينية, على مستوى أدب الداخل والخارج.
- لقد حمل هذا الشعر هموم شريحة عريضة من الذين يعانون عنت النفي واللجوء في أرض الشتات.
- برزت في مجموعة (دمي على كفي), للشاعر سميح القاسم موضعا المنفى وهاجس العودة, وقد اسهما في تسليط الضوء على الحق الفلسطيني على حدٍّ سواء ولم تكتفيا بقضايا المنفى والعودة.

- إن موضوعي المنفى و العودة من الموضوعات الانسانية التي تنم عن مشاعر واحاسيس ضاع صوتها في وسط زوبعة التهجير القسري والطوعي.
- ثنائية المنفى وهاجس العودة من الثنائيات التي لا يمكننا الفصل بينهما, فهما في تعالق دائم, أولهما سبباً في حدوث الأخرى.
- لقد كشفت نصوص الشاعر سميح القاسم عن أهمية الخوض في أدب المنفى والعودة.
- ثقافة المنفى والعودة ورشة عمل معرفية اتخذت من الأدب سلماً لترتقي به إلى مصاف أذهان القاصي والداني, علَّ العالم المتحضر ينصف قضيتها العادلة.
- في المجموعة الشعرية (دمي على كفي) تجلَّت مشاعر واحاسيس وتطلعات الفلسطيني المنفي وحلمه الأزلي بالعودة إلى الديار من أجل مقارعة المحتل مجدداً, فهو لا يخشى فتك المحتل وظلمه .
- لقد توضح بما لا يقبل الشك عمق ثقافة ووعي الفلسطيني المنفي بقضيته, مما سهل عليه مهمة شرح مظلوميته.
- قدر الفلسطيني مواجهة المحتل بنفسه من دون التعكز على الاخرين, فهو مدرك ما تخفيه نوايا التآمر من وقت مبكر.

الهوامش: 1- منجي الشملي، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية, الدار العربية للكتاب، تونس، 1982 م، ص57 .

2- إلياس الخوري, الذاكرة المفقودة ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1, 1982م, ص229 .

3- المصدر نفسه: ص.229

4- غسان كنفاني, الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968, ط1, مؤسسة الدراسات الفلسطينية, بيروت, 1968م, ص.54

5-غسان كنفاني, الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968, ص.45

6-عباس يد اللهي فارساني, الترميز في الشعر الفلسطينيي المقاوم؛ مجموعة العصف المأكول الشعرية أنموذجا فصلية إضاءات نقدية، السنة ٧، العدد ٢٨ ، شتاء ١٣٩٦ ش, ص.102

7- غسان كنفاني, الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968, ص.61

8- تهاني سالم محمد أبو صلاح, الشعر الفلسطيني المقاوم في القرن الواحد والعشري (2000 -2015م), فلسطين, الجامعة الاسلامية غزة, كلية الآداب, رسالة,2016م, ص.10

9-غسان كنفاني, الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968, ص.61

10- إيمان حمود, جدلية الموت والحياة في شعر سميح القاسم, الجزائر, جامعة محمد خيضر بسكرة, كلية الآداب واللغات, قسم الآداب واللغة العربية, رسالة, 2015-2016م, ص.84

11- المصدر نفسه: ص.85

12-مصطفى عبد الغني, المقاومة والمنفى في الرواية الفلسطينية, ط1, دارة الكرز للنشر والتوزيع, القاهرة- مصر , 2012م, ص.19

13- محمد الشحَّات, سرديات المنفى, الرواية العربية بعد عام 1967م, ط1, أزمنة للنشر والتوزيع, عمان- الأردن, 2006م, ص.24

14- المصدر نفسه: ص.21

15- إدوارد سعيد, تأملات حول المنفى ومقالات أخرى, الجزء الأول, ترجمة, ثائر ديب, ط1, دار الآداب, بيروت, 2004م, ص.117

16- محمد الشحَّات, سرديات المنفى, الرواية العربية بعد عام 1967م, ص.22

17- المصدر نفسه: ص.23

18- إدوارد سعيد, تأملات حول المنفى ومقالات أخرى, ص.121

19- محمد الشحَّات, سرديات المنفى, الرواية العربية بعد عام 1967م, ص.23

20- محمود لؤي شهاب، صورة النكبة في الشعر الفلسطيني :شعراء المنفى أنموذجاً ، مقال سابق، ص147.

21-جهاد الرجب, ورشة عمل بعنوان :أدب العودة والتحرير .حقيقة حتمية أم أحلام شعرية؟، في المؤتمر الشعبِ لفلسطيني الخارج،(إسطنبول 26 - 25 :فبراير، 2017 م, ص.14

22- المصدر نفسه: ص.14

23- إدوارد سعيد, تأملات حول المنفى ومقالات أخرى, ص.117

24- المصدر نفسه: ص.120

25- موسى، محمد خيري، ورشة عمل بعنوان :أدب العودة والتحرير ..حقيقة حتمية أم أحلام شعرية؟(إسطنبول، 2017م, ص43.

26- عبد الفتاح القلقيلي وأحمد أبو غوش, الهوية الفلسطينية خصوصية التشكيل والإطار الناظم البديل, المركز الفلسطيني بيتكم فلسطين، (د- ط) نسيان 2012 م،ص.14

27- المصدر نفسه: ص.14

28- شهاب، لؤي محمود،" صورة النكبة في الشعر الفلسطيني :شعراء المنفى أنموذج اً"، مجلة كلية التربية الأساسية، مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية، جامعة بغداد، ج 20 ، العدد(86), 2014 م, ص143.

29- حسين جمعة, ملامح في الأدب المقاوم فلسطين أنموذجا، منشو ا رت الهيئة العامة السورية للكتاب، و زارة الثقافة، دمشق, 2009 ، ص.28

30- ديوان سميح القاسم, دمي على كفي, (د- ط), دار العودة, بيروت, 1987م.

31- الديوان: ص.456

32- الديوان: ص.458

33- الديوان: ص.456

34- الديوان: ص.456

35- الديوان: ص.471

36- الديوان: ص.472

37- الديوان: ص.472

38-الديوان: ص.472

39- الديوان: ص.526

40- الديوان: ص.526

41- الديوان: ص.594

42- الديوان: ص.594

43- الديوان: ص.594

44- الديوان: ص.449

45- الديوان: ص.450

46- الديوان: ص.487

47- الديوان: ص.488

48- الديوان: ص.497

49- الديوان: ص.498

50- الديوان: ص.498

51- الديوان: ص.600

52- الديوان: ص600.

المصادر والمراجع

- إدوارد سعيد, تأملات حول المنفى ومقالات أخرى, الجزء الأول, ترجمة, ثائر ديب, ط1, دار الآداب, بيروت, 2004م.
- إلياس الخوري, الذاكرة المفقودة ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1, 1982م.
- إيمان حمود, جدلية الموت والحياة في شعر سميح القاسم, الجزائر, جامعة محمد خيضر بسكرة, كلية الآداب واللغات, قسم الآداب واللغة العربية, رسالة, 2015-2016م.
- جهاد الرجب, ورشة عمل بعنوان :أدب العودة والتحرير .حقيقة حتمية أم أحلام شعرية؟، في المؤتمر الشعبِ لفلسطيني الخارج،(إسطنبول 26 - 25 :فبراير، 2017 م.
- حسين جمعة, ملامح في الأدب المقاوم فلسطين أنموذجا، منشو ا رت الهيئة العامة السورية للكتاب، و زارة الثقافة، دمشق, 2009.
- ديوان سميح القاسم, دمي على كفي, (د- ط), دار العودة, بيروت, 1987م.

- عباس يد اللهي فارساني, الترميز في الشعر الفلسطيني المقاوم؛ مجموعة العصف المأكول الشعرية أنموذجاً فصلية إضاءات نقدية، السنة ٧، العدد ٢٨ ، شتاء ١٣٩٦ ش.
- عبد الفتاح القلقيلي وأحمد أبو غوش, الهوية الفلسطينية خصوصية التشكيل والإطار الناظم البديل, المركز الفلسطيني بيتكم فلسطين، (د- ط) نسيان 2012 م.
- غسان كنفاني, الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968, ط1, مؤسسة الدراسات الفلسطينية, بيروت, 1968م.
- محمد الشحَّات, سرديات المنفى, الرواية العربية بعد عام 1967م, ط1, أزمنة للنشر والتوزيع, عمان- الأردن, 2006م.
- محمود لؤي شهاب،" صورة النكبة في الشعر الفلسطيني :شعراء المنفى أنموذج اً"، مجلة كلية التربية الأساسية، مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية، جامعة بغداد، ج 20 ، العدد(86), 2014 م.
- مصطفى عبد الغني, المقاومة والمنفى في الرواية الفلسطينية, ط1, دارة الكرز للنشر والتوزيع, القاهرة- مصر, 2012م.
- منجي الشملي، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية, الدار العربية للكتاب، تونس،1982 م.
- موسى، محمد خيري، ورشة عمل بعنوان :أدب العودة والتحرير ..حقيقة حتمية أم أحلام شعرية؟(إسطنبول، 2017م.